علاقة الإيديولوجيا بالأدب

The relationship between ideology and literatura

حسيبة ساكر
جامعة الشيخ العربي التبسي– تبسة / الجزائر
hassibasaker@gmail.com

ملخص البحث

يعد الأدب شكلا من أشكال الإيديولوجيا، وحقلا من حقولها، وعلى ضوء ذلك سنحاول مقاربة هذه العلاقة المتواشجة بين الإيديولوجيا والأدب، انطلاقا من مقولة قوامها أن" الإيديولوجيا محور الارتكاز لكل تعبير فني أدبي.

الكلمات المفتاحية: العلاقة، الإيديولوجيا، الأدب

Summary :

Literature is considered as a form of ideology among others and one of its fields. On the light of the abovementioned assumption, we will attempt to approach this tangled relationship between ideology and literature departing from the quote that says: << ideology is the axis and focal point of every artistic literary expression>>.

Key words: Relationship, ideology, literature.

المقدمة:

<<يستند الأدب في كل عصر إلى إيديولوجيا تمكنه من تحقيق ذاته، ويمكنها من فرض سيطرتها على المجتمع وأفراده>>[1]، من هنا يتضح لنا جليا أن علاقة الأدب بالإيدولوجيا علاقة وطيدة ومتينة، بل معقدة وخطيرة في الآن ذاته، لأنها تحمل الكثير من التجارب والتصورات المختلفة.

I علاقة الايديولوجيا بالأدب:

إن الفكر المثالي يتشدق بأن الأدب ممارسة إبداعية فردية صرفة من صنع الذات المبدعة وحدها، لأن <<الموضوع الأدبي هو إبداع مطلق لا يتحدد إلا بخالقه؛ لذا يجب بحث الأدب على أساس الموهبة والعبقرية>>[2]، وهذا يحيلنا إلى استقلالية الأدب عن الإيدولوجيا والمجتمع، لأن <<العمل الأدبي ليس مركبة لنقل الأفكار، ولا انعكاسا للواقع الاجتماعي>>[3] بل <<كتابة خارج التاريخ وخارج العلاقات الاجتماعية وسيروراتها>>[4]، وبالتالي << لا يحمل أي ذرات من أفكارها وأيديولوجياتها، فانطلاقا من الذات وعودته إليها تؤكد لا أيديولوجية>>[5].

إن عزل الفكر المثالي الأدب عن سياقه السوسيوتاريخي يعد في رأينا انزلاقا خطيرا، لأنه جعل الأدب ينشأ من العدم، وهذا أمر غير معقول، لأن الذات المبدعة تعيش في سياق سوسيوتاريخي تتأثر به ويؤثر فيه، لذلك لا يمكن أن يكون إبداعها خلقا فرديا، لذلك و<<بظهور المادية التاريخية تراجعت كلمة خلق بوصفها مفهوما ميتافيزيقيا غير قادر على تحليل طبيعة الممارسة الأدبية، وإدراك العلاقات المعقدة التي تربط الأدب بالأيدولوجيا، ومن ثم بالعلاقات الاجتماعية وبنيتها، وتقدمت مقولة أخرى أو مفهوم آخر يهدف إلى تحديد الأدب بدقة علمية، إنه مفهوم الإنتاج>>[6].

وحسب هذا المفهوم يصبح الأدب شكلا من أشكال الإيدولوجيا فهو من إنتاجها، لأن البنية التحتية هي المنتجة للبنية الفوقية المتمثلة في الإيدولوجيا المسيطرة التي تعبر عن أفكار الطبقة المسيطرة، ولأن <<الأدب مرتبط في جزء منه بنسق من القيم؛ أي برؤية للعالم، وبالتالي فبإمكانه التعبير عن وجهة نظر المهيمنين>>[7].

بهذا المنظور يصبح <<الموضوع الأدبي وشكله ليسا إلا انعكاسا أيديولوجيا للموقع الطبقي للكاتب>>[8]، ووفق هذا المنطق يتم إلغاء خصوصية الممارسة الأدبية، فيحل الاقتصادي محل الإيديولوجي والإيديولوجي محل الأدبي، فيغدو الأدب عملية إيديولوجية صرفة، تنتج أعمالا أدبية هشة، لأن <<إخضاع

الأدب للأدلوجة ينشئ أدبا هشا لا يسمو إلى درجة الإبداع>>[9] مهمته تقديم إيديولوجيا الطبقة السائدة، وهذا ما نعترض عليه، لأنه بإمكان الأدب أن يعبر أيضا على يوتوبيا <<الطبقة المعارضة – المحكومة – الطبقة التي مصلحتها أن يحدث تغيير ثوري في المجتمع، وهو بهذه الصفة يلعب دور الوعي المكتنه لإمكانات التغيير والدعوة إليه وإنجازه؛ أي أنه يلعب دورا ثوريا حقيقيا>>[10].

وهذا مشروط بامتلاك المبدع الجرأة والشجاعة ليتبنى إيديولوجيا ثورية انقلابية، حينها يصبح <<للأدب القدرة على تعرية تلك المبادئ المنتشرة عبر عملية تفكيكية معاكسة>>[11].

وإذا سلمنا بأن الأدب ينتج إيديولوجيا، فيجب أن يعي أن هذه الإيدولوجيا تسمى "إيديولوجيا أدبية" يفرزها العمل الأدبي الذي يخضع لـ<<سيرورة تحويل وتشكيل وتثوير وتشويه للمواد الأولية الأدبية، التي وضعها تاريخ الأشكال الأدبية أمام الكاتب، من فنيات الكتابة واتجاهاتها وأساليبها وطرقها، كما أن الكاتب في لحظات كتابته لنصوصه يجد أمامه تجربته الحياتية بأبعادها النفسية والاجتماعية والأيديولوجيا التي يتبناها، ويحمل الأيديولوجيات القائمة في مجتمعه وعصره، وأشكال انعكاساتها في ذهنه، وفي أذهان الناس الذين يحيا معهم>>[12].

وبناء عليه يقوم المبدع بصياغة تجربته وإيديولوجيته، وإعادة إنتاجها في ثوب جديد يسمى العمل الأدبي، <<بهذا المنظور يعد الأدب إعادة إنتاج ذات خصوصية للأيدولوجيا، وليس إنتاجا لها ولأنها موجودة قبله، ولأنه أحد خطاباتها، ويبدو الأديب كأنه عامل في ورشة لإنتاج النصوص، يراكم تجربة الأجيال السابقة في فكره و بين يديه، وينطلق منها نحو أفاق جديدة>>[13].

ولفهم علاقة الأدب بالإيدولوجيا يقترح عمار بلحسن تحليل هذه العلاقة وفق الأطروحات الثلاث التالية[14]:

العمل الأدبي هو كتابة تنظم الإيدولوجيا وتبنينها؛ أي تمنحها بنية وشكلا ينتج دلالات جديدة متميزة تختلف في كل عمل وتبدو جديدة وأصلية، بحيث إن كل عمل يحمل تجربته الخاصة ودلالاته المتميزة، أي شكله و مضمونه.

يقوم العمل الأدبي بتحويل الإيدولوجيا وتصويرها؛ الأمر الذي يسمح باكتشافها وإعادة تكوينها لكونها إيديولوجيا عامة، متواجدة في عصر أو مجتمع معين. إن العمل يفضح كاتبه ويعريه، ويجعل واضحا ما يخفيه من انعكاسات فكرية ورؤى: عندها تغدو الإيدولوجيا التي يحملها صريحة في قولها، رغم أن وجودها في النص مضمر ومخفي في أثواب وألبسة وأشكال وصور وملامح.

يتضمن النص الأدبي عناصر معرفة للواقع؛ فهو انعكاس عارف، وتمثيل فني لظواهره وأشخاصه وعلاقاته وأحاسيسه ومخفياته.

إن هذه المعرفة تختلف عن المعرفة العلمية بالمفهوم الدقيق للكلمة نظرا لاختلاف اقتراب العلم والأدب من الواقع و طريقة تمثلها له.

وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن العمل الأدبي يمكنه أن يستوعب مختلف التجارب الإنسانية والتوجهات الإيديولوجية، وتأسيسا على ذلك، ما هو الجنس الأدبي المخول لاستعاب كل هذه الحمولات السوسيوفكرية؟ من المؤكد ستكون الإجابة في الغالب "الرواية"، فما هي إذن علاقة الرواية بالإيديولوجيا؟.

1 الإيديولوجيا في الرواية:

ترى الدراسات المهتمة بتاريخ الرواية أن الرواية جنسا أدبيا جديدا أفرزته البرجوازية الأوروبية خلال صعودها الثوري، <<تحول روح الإنسان والفرد من التعبير الشعري الملحمي الحماسي الفروسي عن نفسها، إلى نثر متفتت يصور الشخصيات الإنسانية في كفاحها وصراعها وسقوطها وتدهورها، أدى إلى خلق شكل أدبي جديد هو الرواية بوصفها ملحمة جديدة للبرجوازية>>[15].

وبما أن الرواية شكلا أدبيا يندرج ضمن الأدب الذي هو أحد أشكال الإيديولوجيا وحقلا من حقولها، ولاحتوائها على شخصيات فإنها تحتوي على إيديولوجيا، سنحاول مقاربة هذه العلاقة المتواشجة بين الإيديولوجيا والرواية، مستفيدين من التطور الجديد الذي قدمه بيير ماشيري (Pierre Machery)* في كتابه " من أجل نظرية للإنتاج الأدبي" لعلاقة الرواية بالإيدولوجيا في نطاق جدلي ماركسي، حيث إعتمد على <<مفهوم المرآة كما تصوره لينين مركزا على دراساته

حول أعمال تولستوي** معتبرا المرآة جزئية لأنها تقوم باختيار ما تعكسه، بمعنى أنها لا تعكس الحقيقة الكلية الموجودة في الواقع>>[16].

فالبرغم من ملامسة أعمال تولستوي (L. Tolestoille) لكثير من المعطيات الواقعية، إلا أنه لا يمكن اعتبارها دليلا قطعيا على تصويرها كل الواقع، لأن النص الروائي مرآة تعكس نسبيا الواقع؛ أي أنها لا تعكس كل الواقع بل تعكس جزءا منه فقط.

لذلك يجب تحليل النص لا التنقل بين النص والواقع، لأن فكرة التحليل (L'analyse) عند بيير ماشيري (Pierre Machery) تكمل في نظره مفهوم المرآة، خصوصا بعد اكتشافه تداخل إيديولوجيتين متناقضتين في أعمال تولستوي (L. Tolestoille) وهما البرجوازية (Bourgeoise) والبلوريتارية (Le prolétariat).

وهذا التناقص الإيديولوجي في النص الروائي يعده بيير ماشيري (Pierre Machery) <<ضروريا وعنصرا أساسيا وشرطا لا غنى عنه لوجود النص وكينونته، فالرواية تحمل مشروعا إيديولوجيا لا يمكن تشكيله إلا بربطه بالواقع الاجتماعي، ولكون المجتمع لا يشتمل على تصور واحد فإن النص مطالب بتجسيد التناقضات والاختلافات الإيديولوجية التي قد لا تتفق مع مضمونه النهائي. فالإيدولوجيا حين دخولها في البناء الروائي، تتصارع فيما بينها بوصفها قيما واقعية وتعبيرا اجتماعيا؛ وتخلف بالتالي علاقة تنازعيه مع التصور العام الذي وظفت في سياقه>>[17].

وهذا السياق يحيلنا إلى أن النص الروائي يمكن أن يحتوي على عدة إيديولوجيات، إلا أنها <<لا تتمتع بالقوة التي لها في الواقع، فهي محاصرة بوجود بعضها إلى جانب بعض، وعند قراءة النص من طرف أصناف متعددة من القراء، فإن كل جماعة تعزل من النص – عن وعي أو غير وعي– ما تراه مناسبا لتصورها الخاص وتلغي الباقي، مما يجعلها تقدم تأويلا خاطئا للنص ذاته>>[18].

لأن إيديولوجيا الكاتب لا تُطرح بالضرورة ضمن الإيدولوجيا المعروضة في النص، بل يمكن أن تبقى مضمرة وخفية في النص تتحرك بسرية تامة، بين الإيديولوجيات المعلنة، وربما تتصارع معها.

هكذا استطاع بيير ماشيري (Pierre Machery) تجاوز طرح لينين (V. Lénine) بتحدثه عن <<اكتمال النتاج الأدبي، فيما يخص بنيته الذاتية، فبالنظر إليه في ذاته فهو تام ودال، ولا يعني تام هنا أن الحقيقة فيه مكتملة بل ينظر فقط إلى البنية العاملة في النتاج ذاته لا إلى علاقته بالواقع الخارجي، أما عدم تمامه من حيث أنه مرآة فهو بالتحديد ما يجعله تعبيريا أي تاما في ذاته وذا معنى>>[19]، و<<المرآة تعبيرية لأنها تعكس أكثر مما هي تعبيرية لأنها تعكس>>[20].

أي أن النص الروائي لو كان مرآة أمينة تعكس الواقع بحذافيره لفقد قيمته الدلالية، وأصبح أشبه بآلة تصويرية تنقل الصورة الواقعية كما هي، أما وهو غير مكتمل فهو إضافة لهذا الواقع وتكملة لما نقص فيه.

وما يمكن ملاحظته على آراء ماشيري (P. Machery) بخصوص الإيدولوجيا في الرواية، أنها شديدة العمق إذا قورنت بآراء سابقيه في هذا الموضوع، وهذا ما ذهب إليه أيضا تيري إيجلتون (Tery Ijltone) بقوله: <<إن مفهوم ماشيري للعلاقة بين النص والإيديولوجيا مفهوم خصب وموح>>[21].

وغير بعيد عن بيير ماشيري (Peirre Machery) نجد المُنظر المجري جورج لوكاش (George Luckucs)*** وتلميذه الروماني لوسيان غولدمان (Lucien Goldman) ينطلقان من نزعة فلسفية مثالية مادية جدلية ليؤسسا نظرية نقدية جمالية أدبية روائية لا تقتصر على المضامين الروائية فقط، بل تولي أهمية قصوى لدراسة الأشكال الأدبية الروائية.

حيث يحاول لوكاش (G. Luckucs) <<تكوين سوسيولوجيا ماركسية للأدب والرواية تستوعب العلاقات المعقدة بين الأدب والرواية والأيديولوجيا والمجتمع>>[22]، متبنيا أطروحة مركزية قوامها <<أن أي مؤلف أدبي أو روائي لا يظهر من العدم، بل تفرزه ظروف تاريخية، سوسيولوجية ملموسة، فلا بد إذن لفهم

هذا العمل من دراسة الفترة التاريخية التي شكلت السياق التاريخي لإنتاجه كعنصر، وفهم العلاقات الاجتماعية التي عالجتها والتي سادت في تلك الفترة>>[23].

هذا يعني أن العمل الروائي للأديب يكون مطبوعا لا محالة بتلك الظروف السوسيوتاريخية التي أوجدت الأديب، وعليه يجب على الناقد أن يدرس العلاقة المتبادلة بين التطور الاقتصادي والاجتماعي باعتبارها مسؤولة عن إنتاج الشكل الفني للعمل الروائي، لأن <<العنصر الشكلي يمثل جانبا أساسيا لكل دراسة تهدف إلى إقامة نقد جمالي سوسيولوجي[24]>>.

وأثناء دراسة لوكاش (G. Luckucs)، للأعمال الروائية لبلزاك (Balzac) **** <<وجد عنده إيمانا بالمبادئ الأرستقراطية،وفي الوقت نفسه ميلا ملموسا نحو مناقضة هذا الفكر الأرستقراطي نفسه[25]>>، هذه النتيجة أوصلته إلى القول بوجود تفاوت أحيانا بين الانتماء الفكري والاجتماعي للمبدع، لذلك نبه النقاد من خطر الوقوع في التحليل الخاطئ بسبب <<النظرة الميكانيكية في تفسير أعمال الروائيين، اعتمادا على انتماءاتهم الاجتماعية أو اعتمادا على معتقداتهم التي يعلنون عنها بشكل مباشر، فعندما يتعلق الأمر بالإبداع الروائي فإنه قد يحدث تفاوت كبير بين المعتقدات النظرية والإيديولوجية للكاتب وبين الرؤية الفكرية التي تتحكم في عمله أو بعض أعماله،فالإبداع يحرر المبدع أحيانا حتى من أفكاره الراسخة[26]>>.

وبإدراك هذا التفاوت الذي يحصل أحيانا بين رؤية الكاتب الإبداعية و رؤيته الإيديولوجية، يكون لوكاش (G. Luckucs) قد أكد على أن الرواية لم تعد مجرد فكر إيديولوجي، لأنها <<قبل كل شئ صياغة جمالية وربما تتجاوز الذات المبدعة أحيانا لتفصح عن صوت آخر يكون معارضا لهذه الذات نفسها[27]>>.

إضافة إلى ذلك يرى لوكاش (G. Luckucs) أن الإيدولوجيا في الرواية نظرة للعالم تتجسد من خلال آراء الشخصيات داخل العمل الروائي، وبناء عليه فالمبدع مطالب بفتح المجال للشخصيات للإدلاء بأفكارها الإيديولوجية، حتى لا يكون النص منغلقا على نفسه، لأن <<أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الأدبي للعالم، لا يمكن أن يكون تاما، فالنظرة إلى العالم هي الشكل الأرقى

من الوعي، فالكاتب يهمل العنصر الهام من الشخص القائم في ذهنه حيث يهمل النظرة إلى العالم. إن النظرة إلى العالم هي تجربة شخصية عميقة، يعيشها الفرد، وهي أرقى تعبير على ماهيته الداخلية، وهي تعكس بذات الوقت مسائل العصر الهامة عكسا بليغا>>[28].

وما يمكن قوله بشأن تصور لوكاش (G. Luckucs) أنه غلب دراسة الجانب الاجتماعي والاقتصادي في النصوص الروائية على دراسة الجانب الجمالي الذي لم يأخذ حيزا كبيرا من اهتماماته.

ولتدارك النقص في نظرية لوكاش (G. Luckucs) يقوم لوسيان غولدمان (Lucien Goldman) بإعادة صياغة إرث أستاذه النظري وفق منهج جديد يسميه "البنيوية التكوينية" "رافضا بذلك "سوسيولوجيا المضامين" التي يظهر فيها العمل الأدبي انعكاسا حتميا آليا للمجتمع ووعيه الاجتماعي، ورافضا أيضا النزعة الشكلانية التي تهتم بالجوانب الاجتماعية والتاريخية في النصوص منطلقا من المنطلقات التالية[29]:

إن الرواية هي تعبير عن "رؤية العالم"، وهي رؤية تتكون داخل جماعة أو وظيفة معينة في احتكاكها بالواقع، و صراعها مع الجماعات الأخرى.

إن دور المبدع هو إبراز هذه الرؤية وبلورتها في أفضل صورة ممكنة ومتكاملة لها؛ أي أنه يعبر من خلالها عن الطموحات القصوى للجماعة التي ينتمي إليها أو يعبر عن أفكارها، وهذا يعني أن المبدع ليس هو صاحب الرؤية الفكرية في العمل الروائي، ولكنه مبرزها، وموضحها فقط.

إن الدور الفردي يتجلى أساسا في الصياغة الجمالية للعمل الإبداعي وليس في بناء الرؤية العامة التي تنتظم هذه الصياغة، لهذا يضفي على الإيدولوجيا إهابا تمويهيا يحولها إلى فن.

إن الشكل الخيالي للعمل الروائي أي بناءه الجمالي يتميز باستقلال نسبي عن بناء العلاقات الاجتماعية وشكلها، لذلك فالنص الروائي لا يطابق الواقع، ولكنه فقط

يمكن أن يماثل بنية أحد التصورات الموجودة عن العالم في الواقع الثقافي و الفكري.

وتأسيسا على ما سبق يتبين لنا أن غولدمان (L. Goldman) يؤكد على أن الرواية تتجاوز الإيدولوجيا لأنها تقدم رؤية العالم في شكل فني، لذا يرى <<أن تحليل النص ينبغي أن ينطلق من بنيته الداخلية ذاته، وأن لا يضاف إليها شيء خارج عنها، وأن تكون دائما غاية البحث في النص هي التوصل إلى معرفة بنيته الدالة>>[30].

لذلك يقترح مرحلتين لتحليل العمل الروائي: الفهم Compréhension والتفسير L'explication ففي المرحلة الأولى تخضع الرواية للتحليل الداخلي، أما المرحلة الثانية فيتم فيها <<الربط بين البنية الدالة وبين إحدى البنيات الفكرية المتصارعة في الواقع الثقافي للمجتمع>>[31].

<<والبنية المقصودة هي ذلك الترابط الحاصل بين رؤية العالم التي يعبر عنها النص في الواقع وعناصره الداخلية شكلية كانت أو فكرية والوصول إليها يتطلب بحثا جديا، ومفصلا ودقيقا للأحداث الواقعية ومعرفة معمقة للقيم الفكرية المنبثقة عنها، ضمن محاور ثلاثة في النص هي: الحياة الفكرية، النفسية العاطفية، والحياة الاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها المجموعة التي يعبر عنها الروائي>>[32]؛ أي أنه بعد إكشافه للبنية الدالة يقوم بربطها بالإيدولوجيا التي يعتبرها عمق النص Logos.

وبناء على المعطيات السابقة نؤاخذ غولدمان (L. Goldman) على عدم تحديده الدقيق لمفهوم البنية مما جعل مفهومه عنها يكون عاما وفضفاضا، إضافة إلى عدم تحديده أيضا الأدوار الإجرائية التي تمكن من تحليلها وسبر أغوارها، ورغم ذلك يعد إعطاؤه الأسبقية للتحليل الداخلي للعمل الروائي تقدما كبيرا في مجال النقد الجدلي مما جعل "البنيوية التكوينية" تتميز بمرونة شديدة في التعامل مع النصوص الإبداعية الروائية متجاوزة بذلك طغيان العنصر الإيديولوجي على العنصر الجمالي الشكلي و العكس صحيح.

وإلى جانب الحركتين السوسيولوجية والشكلانية تبرز حركة نقدية أخرى كانت مهمشة منذ فترة زمنية طويلة بسبب الاضطهاد الروسي لروادها نتيجة مخالفة أفكارهم للطرح الماركسي، ويعد ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) *** أحد أقطابها الذين تحدثوا عن المكونات الإيديولوجية للنص الروائي بطريقة عميقة أثناء بلورته لآرائه حول علاقة الرواية بالإيدولوجيا، حيث نجده يلح على ربط اللغة بالإيدولوجيا – بإعتبارها – <<دلائل مركبة في نسق معين، هي في الوقت نفسه إيديولوجيا، كما أنها بالضرورة تجسيد مادي للتواصل الاجتماعي>>[33].

وهذا يعني أن اللغة ظاهرة اجتماعية يمكنها التعبير عن الآراء الفكرية لمختلف الطبقات الاجتماعية، فتفقد بذلك شفافيتها وتتلون بإيديولوجيات مختلفة؛ هكذا تستوعب كل عمليات الفكر والوعي، لذلك يدعو باختين (M. Bakhtine) إلى <<تحليل عميق وجاد للكلمة كدليل مجتمعي حتى يمكن فهم اشتغالها كأداة للوعي وتستطيع الكلمة بفضل هذا الدور الاستثنائي الذي تؤديه كأداة للوعي أن تشتغل كعنصر أساسي مرافق لكل إبداع إيديولوجي>>[34].

ووفق هذا المنظور <<يخطو باختين خطوته الأولى باتجاه استبعاد الدراسة الخارجية عن النص الإبداعي الروائي والاكتفاء بالتركيز على دراسة السياقات اللغوية الاجتماعية والمقصود باللغات الاجتماعية ليس الصيغ التركيبية والمعجمية المتعددة، وإنما الخلفيات السوسيوتاريخية للأفراد>>[35].

فتظهر بذلك صورة المجتمع في النص الروائي عبر لغة الأفراد لأن <<المتكلم في الرواية فرد اجتماعي ملموس، وخطابه لغة اجتماعية، لا لهجة فردية، ومن ثم فالمتكلم في الرواية هو منتج أيديولوجيا وأقواله عينة أيديولوجية>>[36].

وفي إطار دراسة باختين (M. Bakhtine) لعلاقة الرواية بالإيدولوجيا يواصل طرحه، حيث يقسم الرواية إلى قسمين متقابلين هما:

رواية مونولوجية مناجتيه أحادية الصوت، ورواية حوارية ديالوجية متعددة الأصوات، أما الرواية المونولوجية المناجتية فتتميز بأحادية الصوت والرؤية، لأنها تعمل فقط على إظهار رؤية واحدة وهي رؤية الكاتب أو بطل الرواية الذي يحمل أفكاره، لأنها أفكار صائبة مع إقصاء رؤى الغير واعتبارها مجانبة للصواب <<لا تسمح بالصراع الأيديولوجي العميق لأن الشخصيات في فضائها، لا تمثل لغات اجتماعية مستقلة، بقدر ما هي أدوات تخدم فكرة الكاتب وإيديولوجيته، ولا يمكن أن تقول أي شيء ما دامت لا تتمتع بالعمق الشخصي المنفرد والاستقلالية، فهدف الكاتب في الرواية المناجاتية هو الحفاظ على الوحدة الدلالية لفكرته التي يطرحها بوصفها البديل الوحيد الصائب، والمقنع، فيصير العالم الروائي خاضعا لنبرة موحدة، ويعبر عن وجهة نظر واحدة ووحيدة>>[37].

وبذلك يخضع النص لسلطة روائية وحيدة وهي إيديولوجيا المبدع، وهذا ما دفع بباختين (M. Bakhtine) إلى معارضة الرواية المونولوجية، وطرح بديل لها، هي الرواية الحوارية الديالوجية، التي استوحاها من الأعمال الروائية لدوستويفسكي (Destoivsky) ****** ، حيث تتميز الرواية الديالوجية بأنها ذات <<طبيعة حوارية بالضرورة حيث تتصارع الأصوات الإيديولوجية ولا تكون هنالك غلبة لإيدولوجيا ضد أخرى، ويكون موقف الكاتب تام الحياد>>[38]، مما يسمح بتحقيق <<نوعا من ديمقراطية التعبير داخل الرواية>>[39].

ولعل ما يكرس حوارية هذا الصنف الروائي في نظر باختين (M. Bakhtine) ليس تعدد الأصوات والرؤى فقط، بل تعدد الأساليب واللغات أيضا.

هكذا تصبح الرواية حسب فكر باختين (M. Bakhtine) بمثابة إعادة إنتاج للعلاقات الاجتماعية، والصراع الإيديولوجي والثقافي على المستوى الفني عن طريق اللغة.

وتأسيسا على ما سبق نقول أن الفكر الباختيني أسهم إسهاما كبيرا في مجال سوسيولوجيا النص بتوجيهه الدراسات النقدية للبحث عن الإيدولوجيا داخل النص الروائي بدلا من تصنيفها ضمن إيديولوجيا محددة، لكن في مقابل ذلك

نعيب عليه تحدثه عن الرواية كإيديولوجيا، متجاهلا بذلك حقيقة أن الرواية لا تستخدم الإيدولوجيا كمادة لبناء عالمها المتخيل فحسب، بل تعتبر في حد ذاتها موقفا إيديولوجيا.

أما فيما يتعلق قوله بالحياد التام للمبدع، هذا لا يعني خلو النص الروائي من إيديولوجيته، لأنها موجودة لكنها مضمرة فيه، كما أن هذا الحياد يمكن أن <<يعتبر بدوره موقفا إيديولوجيا>>[40].

وغير بعيد عن الفكر الباختيني، تظهر آراء الناقد التشيكوسلوفاكي بيير فالري زيما (Pierre Valery Zima) ******* لتدعم التيار النقدي لسوسيولوجيا النص الروائي، محاولة تقديم تصور نظري جديد أساسه <<إقامة وجهة نظر جديدة في دراسة سوسيولوجيا الرواية، وذلك بتوجيهها نحو اهتمام متزايد بالبنية الداخلية للنص اعتمادا على تحليل سوسيولساني وتناصي (Sociolinguistique intertextuel) [41]>>، داعيا إلى <<تجاوز الصراع الذي ظل محتدما بين الاتجاهات الاجتماعية والشكلانية الروسية، وهو صراع اتخذ صبغة تناقض بين الشكل والمضمون لذلك نجده لا يرى أهمية كبيرة لأنها تعارض الشكل والمضمون، بل ينبغي أن تعرف دائما أن النسق اللغوي>>[42]، <<فضاء غير محايد أو غير خارج عن الإيديولوجية، وهو في حقيقته مجال تتصادم فيه مصالح اجتماعية متعارضة، وبالتالي فإن النصوص الأدبية بوصفها كيانات لغوية دلالية ستصبح مجالا للصراع الإيديولوجي>>[43].

وهذا يعني أن <<المشاكل الاجتماعية والاقتصادية يمكنها أن تقدم في النص الأدبي على شكل قضايا لسانية، تتجسد من خلال طابعه التناصي Intertextuel، ولذلك فإن الفصل بين الدلالة الإيديولوجية للنص، وبين بنيته اللسانية، يعتبر عملا اعتباطيا ما دامت هذه الدلالة ملتحمة ومتمظهرة في النص بواسطة البنية اللسانية للنص ذاته>>[44].

ووفق هذا المنظور نتلمس اقتراب زيما (P.V. Zima) من مفهوم الحوارية عند باختين (M. Bakhtine) بدمجه الرواية ضمن الوضعية السوسيولسانية، غير

أنه يتجاوز أطروحة باختين (M. Bakhtine) التي تقول بحياد المبدع، بتأكيده أن النص الروائي هو في حد ذاته يشكل موقفا إيديولوجيا يصارع بقية الإيدولوجيا الثاوية في النص، لأن <<كل نص تخييلي يمكن أن يفهم كموقف إيديولوجي نقدي، أو غير نقدي بالنسبة للنصوص التخيلية الأخرى أو غيرها من النصوص المنطوقة أو المكتوبة، كما أن النص التخييلي يبدو كنسيج من أحكام القيمة التي تؤكد على مشروعية بعض المصالح الاجتماعية من أجل التشكيك في مصالح الآخرين>>[45].

في النهاية نخلص إلى أن بيير فالري زيما (Pierre Valery Zima) باستفادته من مختلف التيارات النقدية السوسيولوجية والشكلانية والبنيوية، تمكن من إثراء الساحة النقدية بآراء متميزة ذات طابع جدلي حول علاقة الرواية بالإيديولوجيا تلح على ضرورة الانطلاق من بنية النص الروائي وصولا إلى بنيته الاجتماعية من منظور سوسيولساني في إطار حمولاته الإيديولوجية.

وإذا كنا في هذا المبحث تطرقنا إلى التيارات النقدية التي حاولت التنظير لعلاقة الرواية بالإيدولوجيا، فإننا سنتناول في المبحث التالي الرواية كإيدولوجيا.

2 الرواية كايدولوجيا:

إن المقصود بالرواية كإيدولوجيا رؤية الكاتب وتصوره <<لأنه عندما ينتهي الصراع بين الإيديولوجيات في الرواية تبدأ معالم إيديولوجية الرواية ككل في الظهور ويمكن القول أن الرواية كايدولوجيا لا يمكن الحديث عنها إلا بعد استيعاب طبيعة الصراع وتحليلها بين الإيديولوجيات داخلها ونتيجة هذا الصراع، لأن الرواية كإيدولوجيا تعني موقف الكاتب بالتحديد، وليس موقف الأبطال كل منهم على حدة>>[46].

وهذا التصور يختلف مع رأي ميخائيل باختين (M. Bakhtine) الذي يقول بحيادية المؤلف خاصة في الرواية متعددة الأصوات Les romans polyphoniques، لكن في حقيقة الأمر <<صوت الكاتب في الواقع أو إيديولوجيته يكونان موجودين ضمن الأصوات المتعددة المتعارضة منذ بداية

الرواية، غير أن جميع هذه الأصوات تبدو متعادلة القيمة بحيث يكون من المتعذر تماما تحديد الموقف الذي يتبناه الكاتب مادام يدير الصراع الإيديولوجي في شبه حياد تام>>[47].

وهذا يؤكد لنا صعوبة تحديد إيديولوجيا الكاتب التي تبقى مضمرة وتنتقل بسرية تامة في النص الروائي، خاصة لو علمنا أن الكاتب يستغل <<جميع الوسائل الفنية والتمويهية والسياقية حتى لا يظهر هذا التسلط الإيديولوجي بشكل مكشوف>>[48].

وفي ختام هذا الحديث نؤكد على أن الإيديولوجيات في الرواية ما هي إلا مكون جمالي، يكون وسيلة في يد المبدع ليعبر من خلالها عن إيديولوجيته الخاصة.

الخاتمة:

بعد مقاربتنا لعلاقة الإيديولجيا والأدب نصل إلى النتائج التالية:

- إن العمل الأدبي يمكنه أن يستوعب مختلف التجارب الإنسانية والتوجهات الإيديولوجية، لذلك لا يمكنه أن يكون ممارسة إبداعية فردية ولا عملية إيديولوجية صرفة، بل هو صياغة لتجربة المبدع وإيديولوجيته في ثوب جديد يسمى العمل الأدبي، فيكون بذلك العمل الأدبي إعادة إنتاج للإيديولوجيا وليس إنتاجا لها.
- إن الرواية شكل أدبي يندرج ضمن الأدب الذي هو أحد أشكال الإيديولوجيا، وحقلا من حقولها، ولاحتوائها على شخصيات فإنها تحتوي على إيديولوجيا أو عدة إيديولوجيات من بينها إيديولوجيا الكاتب، التي لا تُطرح ضمن الإيديولوجيا المعروضة في النص الأدبي، بل يمكن أن تبقى مضمرة في النص تتحرك بسرية تامة بين الإيديولوجيات المعلنة، وربما تتصارع معها.
- قد يحصل أحيانا تفاوت بين رؤية الكاتب الإبداعية ورؤيته الإيديولوجية، وهذا ما يؤكد لنا أن الرواية لم تعد مجرد فكر إيديولوجي، لأنها قبل كل شئ صياغة فنية جمالية.

الهوامش:

[1] أحمد مداس: الايدولوجيا وصراع المركز والهامش عند الغربيين، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السابع، 2011، ص43.

[2] عمار بلحسن: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا ،الأدب،الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد 4 يوليو/أغسطس/ سبتمبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975، ص166.

[3] تيري إيجلتون: مقدمة في نظرية الأدب، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ط، 1991، ص13.

[4] عمار بلحسن: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا، الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد4، ص166.

[5] المرجع نفسه، ص166.

[6] المرجع نفسه، ص166.

[7] أحمد رباص: العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا من منظور جيزيل سابيرو، 2016/02/07، تاريخ الزيارة: 2016/09/18.
http://yennayri.com/news.php?extend.3515.13.html

[8] عمار بلحسن: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا، الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد4، ص166.

[9] مسلك ميمون: الأدب والنقد وإشكالية الأدلوجة، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد 5 العدد 4، ص106.

[10] كمال أبو ديب: الأدب والأيديولوجيا، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد 5، العدد 4، ص58.

[11] أحمد رباص: العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا من منظور جيزيل سابيرو، 2016/2107، تاريخ الزيارة: 2016/09/18.
http://yennayri.com/news.php?extend.3515-13.html

[12] عمار بلحسن: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديوجيا،الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد4، ص167.

[13] المرجع نفسه، ص167.

[14] المرجع السابق، ص167.

[15] جورج لوكاش: الرواية كملحمة بورجوازية، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، د ط، 1979، ص ص10، 11.

[*] بيير ماشيري (Pierre Machery): فيلسوف فرنسي.

[**] ليو تولستوي (الكونت ليف نيكولافيتش) (L.Tolestoille) (1828–1910)؛ من عمالقة الروائيين الروس ومصلحا إجتماعيا وداعية سلام ومفكرا أخلاقيا، أشهر أعماله روايتي (الحرب و السلام) و (أنا كارنينا).

[16] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص25.

[17] عمرو عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، ص52.

[18] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص ص26، 27.

[19] المرجع نفسه، ص29.

[20] المرجع نفسه، ص29.

[21] تيري إجلتون: النقد والأيديولوجية، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، عمان، د ط، 1992، ص113.

[***] جورج لوكاش (George Luckucs) (1885–1971): فيلسوف ومُنظر للأدب، ورجل سياسي مجري، و الممثل الرئيسي للنقد الماركسي، من مؤلفاته بلزاك الواقعية الفرنسية سنة 1951، و فلسفة الفن 1914 و الذي نُشر بعد وفاته.

[22] عمار بلحسن: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا، الأدب، الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد4، ص169.

[23] جورج لوكاش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة و الفنون، بغداد، د ط، 1978، ص ص 11، 12.

[24] عمرو عيلان:الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة،
، ص54.

[25] حميد الحميداني: النقد والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي ، ص62.

[26] المرجع نفسه، ص ص63،62.

[27] المرجع نفسه ، ص63.

[28] جورج لوكاش: دراسات في الواقعية؛ تر: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1980، ص25.

[29] حميد الحميداني: النقد والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص ص، 66، 67.

[30] لوسيان غولدمان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، تر: مصطفى المناوي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981، ص12.

[31] المرجع نفسه، ص12

[32] لوسيان غولدمان: المادية الجدلية و تاريخ الأدب، تر: محمد برادة، مقال منشور ضمن كتاب البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1984، ص17.

*** ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtine) (1895–1975): فيلسوف ومُنظر أدبي روسي.

[33] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص74.

[34] ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، ص 43.

[35] عمرو عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، ص62.

[36] ميخائيل باختين: المتكلم في الرواية، تر: محمد برادة، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد3، ج1، إبريل /مايو/ يونيو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص104.

[37] عمرو عيلان: الإيديولوجيا و بنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، ص ص 64، 65.

****** دوستويفسكي (Destoivsky) (1821–1881) روائي روسي يتمتع بشهرة عالمية واسعة، من أشهر رواياته "الجريمة و العقاب" و"الاخوة كارلمازوف).

[38] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص81.

[39] يمنى العيد: الراوي، والموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1986، ص171.

[40] نبيل بوالسليو: الإيديولوجي في الرواية / رواية: الطاهر وطار يعود إلى مقامه الزكي – نموذجا–، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد 08، 2014، ص91.

****** بيير فالري زيما (Pierre Valery Zima) ولد في براغ سنة 1946 درس علم الاجتماع

[41] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص83.

[42] المرجع نفسه، ص86.

[43] عمرو عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، ص68.

[44] حميد الحميداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، ص86.

[45] المرجع نفسه، ص87.

[46] المرجع نفسه، ص35.

[47] المرجع نفسه، ص36.

[48] المرجع نفسه، ص46.

المراجع:

1 – أبو ديب كمال: الأدب والأيديولوجيا، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد 5، العدد 4، يوليو/أغسطس/ سبتمبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

2 – إيجلتون تيري: مقدمة في نظرية الأدب، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د ط، 1991، ص13.

3 – النقد والأيديولوجية، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، عمان، د ط، 1992.

4 – باختين ميخائيل: الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1،د ت.

5 – المتكلم في الرواية، تر: محمد برادة، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد3، ج1، إبريل /مايو/ يونيو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.

6 – بلحسن عمار: ما قبل بعد الكتابة حول الأيديولوجيا ،الأدب،الرواية، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد5، العدد 4 يوليو/أغسطس/ سبتمبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

7 – بوالسليو نبيل: الإيديولوجي في الرواية / رواية: الطاهر وطار يعود إلى مقامه الزكي – نموذجا–، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد 08، 2014.

8 – الحميداني حميد: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990.

9 – رباص أحمد: العلاقة بين الأدب والإيديولوجيا من منظور جيزيل سابيرو، 2016/02/07، تاريخ الزيارة: 2016/09/18.
http://yennayri.com/news.php?extend.3515.13.html

10 – لوكاش جورج: الرواية كملحمة بورجوازية، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، د ط، 1979.

11 – الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة و الفنون، بغداد، د ط، 1978.

12 – دراسات في الواقعية؛ تر: سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1980.

13 _ مداس أحمد: الايدولوجيا وصراع المركز والهامش عند الغربيين، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد السابع، 2011.

14 – العيد يمنى: الراوي، والموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1986.

15 – عيلان عمرو: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيوبنائية في روايات عبد الحميد بن هدوقة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة ط1، 2001.

16 – غولدمان لوسيان: المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، تر: مصطفى المناوي، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981.

17 – المادية الجدلية و تاريخ الأدب، تر: محمد برادة، مقال منشور ضمن كتاب البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1984.